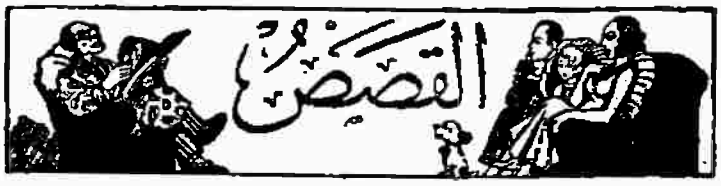

نهـــاية الطريق (*)

للكاتب الأمريكي : نيوبولد نويز

بقلم السيد محمد العزاوي

هناك بين تلك الصخور التي تحف بحيرة « كومو » فتعقد حول مياهها الضاحكة سداً من ضباب ، وعلى شعاف جبل يرتفع عن البحيرة بثلاثة آلاف قدم ، تجثم كنيسة صغيرة عبثت بها عوادي الزمن ، وهي تشرف على قريتي « كادنابيا » و« مناجيو ». ويدور بكل ذلك محيط من جبال قارعة الذوائب سامقة القنن ، تتناهى سفوحها إلى جبال الألب العظيمة ، ويبعد أقصى منازل القريتين عن الشعب الذي يطوق الجبل بميلين كاملين

وقد كان القوم يحجون في كل عام إلى الكنيسة مرة ، يبتهلون فيها إلى الله أن يكلأهم بعنايته ، فينزل عليهم الغيث حين الجفاف ، وفيما عدا ذلك فنبأ ما كانت تزار

وقد كان «بلاجدن» يصعد في طريق لاحب متمعج ، قد امتد لاصماً بين مجموعة من منازل ألبسها الماء ثياباً من زرقة صافية ، وكان الجو ساكناً ، لا تخفق فيه نسمة من ريح ، فتداعب أوراق الزيتون التي أكسبتها الشمس بريقاً فضياً بديعاً في الجبل ، وكانت أشجار السرو تلقي على الهضاب ظلالها المستطيلة الوارفة ، بينا كان « بلاجدن » يتقدم في طريقه صعداً شاعراً بكل ما يدور به من بدائع الحسن وآيات الجمال

وعند ما بلغ الكنيسة وولج الباب ، وجد من بردها وظلامها حائلين يقومان من دونه ، ولكنه تخطى الباب إلى الداخل ، ثم خطا بضع خطوات ، فكان لوقع أقدامه رنين كئيب قوي يطوّف كل ربوع المكان ، وكان من العسير عليه أن يتبين في تلك الكنيسة شيئاً بعد أن كانت الشمس في الخارج تنمر ما يرى ، غير أنه ألف الظلمة بعد قليل ، وبصر في الركن البعيد بأربع شمعات موقدات ، فاتجه نحوها بخطى وئيدة ، بينا يتقعقع تحت قدميه هذا البلاط الذي تأكله الزمان

وتجلى للناظر فوق الشموع الأربع صورة لمريم في إطار بسيط رخيص مذهب . وأدمن « بلاجدن » النظر في الصورة مأخوذاً. فقد كانت تحفة من يد صناع بارعة . إذ تجسم فيها مثال رائع من جمال أنثوي رائع . ولعل العينين كانتا أبدع ما في الصورة : كان يشع منهما بريق الإيمان والتفكير والرحمة

وكان الرسم طبيعي الحجم والخلقة ؛ يتجلى في لون دخاني أزرق يوحي بالفكر ويبعث التأمل ، وقد أكسبها نور الشموع المتراقص تحتها سحراً وروعة ، وانجمعت على شفتيها بسمة تأمل ، فبدا الرسم في بعض الأحيان حياً . ولكن ما هذا ؟ لقد انصدع صدر العذراء صدعاً ، وانشق عند القلب شقاً رفيعاً مستطيلا ؛ ثبت بأسفله خنجر دقيق ذو نصل رهيف

وانثنى « بلاجدن » إلى الخنجر ينزعه مفكراً ، ولكن انبعث من ورائه في الظلام صوت يقول :

— أيها السيد ! ما أحب لهذا الخنجر أن يمس !

والتفت «بلاجدن» وراءه وجلا ، فإذا بشيخ يرتدي مسوح الرهبان ، وقد هزل جسمه ، وذبل وجهه ، وتهدل شعره الأشيب ، ولم يبق من ذلك الراهب إلا ذماء قليل وعينان مضيئتان أثارتا طلعة « بلاجدن » بتوقدهما الغريب ، وأما بقية وجهه فقد كان شبيهاً بوجوه الموتى

وسأله « بلاجدن » :

— ولكن لماذا ؟

فخطا الراهب إلى الأمام في ذلك النور الشاحب المتراقص ،

(*) نيوبولد نويز من الكتاب الأمريكيين الذين تأخر بهم العهد إلى أن شهدوا المذهب الواقعي Realism يغزو ميدانهم القصصي . ولكن ذلك لم يمنعه أن يتقدم إلينا بنوع قديم كانت له مكانة في الربع الأول من القرن العشرين : وهو « قصص الحب Romance of Love » ولقد ثبت هذا النوع حتى لينازل إلى أن عصفت به الواقعية بشروطها القاسية وقيودها المتعددة . و«نهاية الطريق» تعد من أروع ما كتب نويز في هذا الباب . فإن تناهي القصة إلى غموض العاطفة الدينية ليكسبها نوعاً من جو صوفي رفيع ، فيسمو بها إلى أعلى درجات هذا الفن .

ثم رمق الشاب الواقف بإزائه برهة ، وتفرس فيه بعينيه الثاقبتين الباحثتين . وكأنما وجد شيئاً في ملامح ذلك الوجه كان يبحث عنه ، فانطلق لسانه في نبرات حنون عجب لها بلا جدن .

— سيدي ! إن لتلك قصة . فهل لك في سماعها ؟

فأومأ بلا جدن أن نعم . فسارا في الظلام حتى بلغا الصف الأول من مقاعد صغيرة واطئة ، وقد استوى أمامهما رسم العذراء وتواثبت عليه أضواء الشموع الأربع وظلالها ؛ وبدا الخنجر في أسفله يعلوه التراب .

وشرع الراهب يتحدث ، وبلا جدن ينصت ، وبصره قد انتظم الرسم البديع .

« كان ذلك من أمد بعيد ، حين كانت « روزا » تعيش مع أبويها في منزل صغير قائم في مناجيو . وكانت ترعى للشيوخ عنزاتهم ، فتسبح كل يوم في أشعة الشمس ما صحت لها دورة الفلك ، وتغني ما يطيب لها من فنون الغناء ، فينساب صوتها في الجو كما تنساب مياه ضاحكة — كساها الظل — في جوف غدير صغير !

« كانت تغني دائماً وتطرب أبداً ؛ فقد كانت فتاة لم تبخل عليها الشمس بالسناء البهيج ، ولم ينقصها الله حظها من الجمال البديع

« وهناك كان « جيوفاني » ؛ فقد كان يغدو كل صباح على وكرها الجميل حيث تنمو الزهور الصفراء ذات القلوب الوردية ؛ فكانت دائماً ترشقه بأوراقها وقلوبها من وراء النافذة الصغيرة ؛ فيمضي الفتى في الجد نفسه ، ويكلفها في العمل شططاً . ولكنه كان يغني ويغني . أولم يكن كل ذلك من أجلها ؟

« وكثيراً ما كانت عنزاتها تعدو على كرمه وقت دلوك الشمس ، فيسوقانها أمامهما إلى المنزل وهما يضحكان وينشدان ، وقد أخذ كلاهما بذراع صاحبه ، والشمس قد أرسلت عليهما — من وراء الجبال — أشعتها الذهبية فانعكست على مياه البحيرة ، أو يسيران معاً وقد تلطفت أشعة الشمس من بعد توهج فيهيء لها تاجاً من الزهر مفتناً في تنسيقه ، متأنقاً في ترصيعه ؛ فتتقبله وهي تضحك ضحكات مرحة .

« كانا كطفلين رعتهما المناية يا سيدي وغفل عنهما الدهر : فكثيراً ما كانا ينفقان الليل ساهرين جالسين إلى البحيرة ؛ يناقلها أحلامه ، ويفضي إليها بأمانيه ؛ بينما تنثر ذوائب شعرها الجميل على خده الأحمر نسمات لطيفة وانية ، والقمر قد أرسل إليهما قبلاته ، وانتظمت أشعة البحيرة ، فبدا الماء طريقاً من لجين يصل بين الشاطئين .

« وكان الناس يرددون من أمرهما أن زواجهما يتم في موسم جني العنب . وقد كان كذلك يا سيدي ، لولا أن بدت قوة جديدة في أفقهما : تلك هي الكنيسة !

« وأكبر الظن أن ليس بين الناس من يدري أنى تتحكم هذه القوة الطاغية في قلب فتاة غضة الجسم ، ريقة الشباب . لقد هتكت صدرها رغبة ملحة أن تنضوي تحت لواء الكنيسة ، وتدخل ذلك الدير القائم خلف البحيرة ؛ تاركة دفء الشمس وراءها وضياءها .

« لم تكن تريد أن تذهب ! وكان هذا التناقض بديعاً أليماً في وقت معاً . هذه الفتاة الغضة الحسناء ، تلوح كأنما هي جزء من ضوء الشمس ، وعبير الزهر ، وشدو الطيور ؛ كان عليها أن تجعل من دون ذلك حجاباً كثيفاً فتوصد عليها باب الدير العتيق !

« أما جيوفاني فقد جن جنونه ، وطار عقله شعاعاً . ولا بأس عليه في ذاك ولا جرم . فقد كان من القسوة أن تنتزع من بين شفتيه كأس نسج حولها وشي الأماني ، وحاك مطارف الأحلام ... أخذ بين يديه يديها الناعمتين ، ثم جثا على ركبتيه ضارعاً ملتاعاً ، وقد غص بدمعه المتسايل على خده الأحمر . وبكت كذلك روزا . ولكنها ما استطاعت أن تجيبه إلى ما طلب ... لعلها كانت تحب الفتى يا سيدي ، ولكن شيئاً أعظم من حب فتاة ، وأعتى من غرام فتى !

« واستمهلته روزا ليلة أخرى ، كيما تقرر فيها ما تفعل . وقد أزمعت أن تأتي هنا إلى هذه الكنيسة فتبتهل إلى مريم أن تنير لها الطريق وتدعوها أن تهديها سبيل الرشاد . وقبل الفتى شفتيها الباردتين ثم ذهبت ... لقد كان طفلا حين ظن بأنها تؤثر ذراعيه القويتين !

« إلى هنا جاءت الفتاة لتجثو طوال الليل فوق هذا الصخر الجافي تبكي وتبتهل ، فقد كانت تحب الفتى حقاً ، ولكن العذراء

رنت إليها من فوق الشموع الأربع واحتوتها بعينيها الحزينتين الفكرتين . وسريعاً ما امتزجت روح الفتاة بروحها ... وما إن انبلج نور الفجر حتى عبرت البحيرة إلى الحيطان البيضاء ، دون أن ترى حبيبها مرة أخرى .

« ولعل الفتى — عندما انتهى الأمر — قد أصابه مس أو جنون . إذ خرج معلناً كرهه لله وللعالم . وانطلق فى ذاك الطريق الأبيض الصغير إلى حيث نحن الآن جالسان .

« وهنا استل هذا الخنجر الذى ترى ، ثم طعن به قلب العذراء وهو يتمتم بقسم خافت مبهم ... ولهذا لم أدعك تلمسه .

وأومأ بلاجدن برأسه بينما صمت العجوز هنيهة ، ثم عاد يقول :

« واختفى جيوفانى عن الناس يومين ، ثم عاد فظهر دون أن تمحى سيماء الجنون عن وجهه ... وهناك على شعب الحدور قابلته جنازة بيضاء . حقا لقد كانت جنازة فتاته . فأهطع إليها ولكنهم أوقفوه . لم يؤنبه أحد على ما اجترم ؛ ولكن تنازع الناس حيال ذلك عاطفتان قويتان : خوف ورحمة .

« وكانت روزا قد ماتت فى الدير جاثية على ركبتيها فى نفس اللحظة التى طعن فيها جيوفانى صدر مريم . وقد أخبروه بعد مدة معدودة أن وجهها — حين ألفوها لدى الهيكل — كان يشبه وجه مريم إلى حد بعيد . ولم يكن لموتها من سبب معروف واضح ، وإنما هو سر غاب عن أذهان البشر ، ودق عن أفهام الناس : ولقد أخبرته الراهبات أنها كانت إذ ذاك تبتهل إلى الله أن يمنحها من لدنه قوة .

« وتوقف الراهب عن الكلام ، فبقى الرجلان صامتين برهة طويلة ، يصعدان النظر معاً فى وجه جميل يشرف عليهما من فوق شموع أربع . وخيم سكون قطعه بلاجدن بقوله :

— وماذا تظنه قد حدث بعد ذلك ؟

— لا أدرى !

واتصل السكون فوق رأسيهما مرة أخرى ، فقاد بلاجدن يقول وهو يمرس عينيه :

— وعلى أية حال فقد أدت الفتاة دين الله عند جيوفانى .

فأجابه الراهب فى هدوء :

— هكذا يخيل إلى يا سيدى ... فإنى أنا جيوفانى ! ...

السيد محمد العزاوى

ظهر المجلد الثانى من :

وحى الرسالة

بقلم

أحمد حسن الزيات

وهو مجموعة متنوعة من أدب الاجتماع والفن والحب والسياسة

يطلب من إدارة الرسالة ومن سائر المكاتب الشهيرة

وثمنه أربعون قرشاً صاغاً غير أجرة البريد

تطلب مطبوعات

دار المعارف للطباعة والنشر

من

الوكالة العامة بالعراق

إدارة المكتبة العصرية لصاحبها

محمود حلمى

فى بغداد ودكاكينها فى الألوية

تليفون ٦٤٨٠ ، ٤٢٧٦

ظهر حديثا كتاب

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

وفيه زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

دليل تليفونات القاهرة طبعة يناير سنة ١٩٤٦

يمكنكم أن تحجزوا الأماكن التي تختارونها للاعلان عن أعمالكم في دليل تليفونات القاهرة الذي سيصدر في شهر يناير سنة ١٩٤٦ .

والاعلان في الدليل المذكور له مزايا خاصة اذ يتجدد كل يوم طوال مدة سريان الطبعة ويتداوله آلاف المشتركين وبه أماكن خالية تستطيعون استئجارها بأسعار زهيدة .

ولزيادة الايضاح اتصلوا

بقسم النشر والاعلانات — بالادارة العامة — بمحطة مصر